

عمل الروح القدس فى الكنيسة الاولى بقوة. وكانت الكنيسة آلة طيعة فى يد الروح، فعمل بها عجباً.. وكان من ثمار عمله صفحة الاستشهاد المشرقة، ولشرح هذا نقتبس من كتاب

## "الإستشهاد فى المسيحية"

لمثلت الرحمات المتنيح الأنبا يوانس

أسقف الغربية

## مع الكنيسة الساهرة ج 1

### ماذا عملت الكنيسة فى محنة الإضطهاد؟

بطولة الشهداء المسيحيين وروحانيتهم من كل ناحية، قدم أحسن شهادة للمسيحية كديانة... لكن هؤلاء الشهداء لم يكونوا وحدهم فى المعركة... كانت وراءهم كنيسة حية ساهرة، قامت بواجبها خير قيام... ولولا ذلك لانهارت المسيحية أمام بطش الدولة وكراهيتها، حينما كان يحصد يومياً العشرات والمئات وأحياناً الآلاف من أبنائها...

ماذا فعلت الكنيسة فى تلك الفترة؟

هذا هو السؤال الذى نناقشه... وفى إجابة سريعة نقول:

1- لقد اهتمت الكنيسة بتجديد النفوس وشحنها روحياً، عن طريق الحث بالتعليم.

2- واهتمت ببناء النفوس فى الإيمان الأقدس. وقد تم ذلك فى الاجتماعات السرية للعبادة، التى كانت تعقد فى سكون الليل... وعلى الرغم من أنها كانت عرضة للمفاجأة والمباغطة فى أية لحظة، بواسطة السلطات الحكومية - وهذا ما كان يتكرر حدوثه (1) - فقد حرص المسيحيون على حضور هذه الاجتماعات - وأرواحهم على أكفهم - لخدمة الكلمة والأسرار المقدسة... وقد تضمنت هذه الاجتماعات قراءات الأسفار المقدسة، وتقديم الصدقات، والصلاة، والتعليم، والوعظ، وإقامة القداس الإلهى لتقديس الافخارستيا(2).

3- رعاية المعترفين والشهداء من جميع الوجوه.

(1) Tert. : Apol. ch. 7.

(2) Justin Martyr. Apol.1:65-67; Tert.: Apol. ch. 39 .

4- اهتمت الكنيسة بإثبات صحة موقفها أمام العالم، وإيضاح ماهية المسيحية، ودفعت عن نفسها الاتهامات، التي حاول اعداؤها المغرضون تشويهها بها. وهذا هو ما قام به فريق من المسيحيين عرفوا باسم المدافعين **Apologists**.

5- اهتمامها بوضع من ضعفوا، وجددوا الإيمان ابان الاضطهادات العنيفة، وأبدوا رغبة في العودة إلى حضن الكنيسة ثانية.

## رعاية الكنيسة للمعترفين والشهداء

عملت الكنيسة ما بوسعها إزاء من قدموا حياتهم ثمنا للإيمان الأقدس، و نالوا من العذابات ما يجلب عن الوصف. فاهتمت بالمعترفين والشهداء وهم في السجون تحت المحاكمة... وأظهرت رعايتها لهم روحيا ونفسيا، كما اهتمت بسد احتياجاتهم المادية... لقد كان كل غرض الكنيسة أن تخفف من آلام الاسر، وآلام الاضطهاد... ولقد نجحت الكنيسة في ذلك، وكان نجاحها أكثر مما كان يتوقع في أمثال الظروف والمحن التي مرت بها<sup>(1)</sup>.

### الرعاية النفسية:

ونقصد بها تشجيع الكنيسة للمعترفين في وقت محنتهم، ورفع معنوياتهم. وقد تم ذلك عن طريق زيارات الخدام وأفتقاداتهم للمحبوسين، وبواسطة رسائل التشجيع التي كانت ترسلها اليهم الكنيسة.

### (أ) بالزيارات:

لقد سمح الحكام الوثنيون لأقارب المعترفين المسجونين وأصدقائهم بزيارتهم في سجونهم، ظلنا منهم أن مقاومة هؤلاء المعترفين تضعف إزاء توسلات ذويهم وإلحاحهم، تحت تأثير العاطفة. أضف الى هذا أن حفظة السجن في تلك العهود، كانوا غالبا جماعة من المرتشين، وكان من السهل شراء محاباتهم وتغاضيهم بالرشوة..

وقد سهلت هذه الناحية على الكنيسة - خداما وافرادا - مهمة رعاية المعترفين في سجونهم<sup>(1)</sup>.. وطبعاً لا يخفى علينا اثر الزيارات في رفع معنويات الانسان المحبوس، حتى أن رب المجد يعتبر هذا العمل، الذي نعمله مع أحد الناس، كأننا قد قمنا به نحوه شخصيا: "كنت محبوسا فأتيتم الى" (مت25:36)...

ويصف لنا القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة الشهيد كيف أن أعدادا كبيرة من

(1) De Prssensé: The Early Years of Christianity, Vol. 2, ch. 2.

أصدقاء المحبوسين، كانوا يحيطون بهم، حتى أنهم فى غمرة حماسهم نسوا أبسط مبادئ الحذر من مضطهديهم... وكانت هذه التجمعات تنشئ عزاء كبيرا للمحبوسين، تحت أبهاء السجون المظلمة<sup>(2)</sup>.

### (ب) بالرسائل:

وكانت الكنيسة تواصل افتقادها للمعترفين المحبوسين عن طريق رسائل التشجيع والتعزية..

كتب كبرياتوس إلى بعض الكهنة المسجونين من أجل المسيح يقول:

"... وكاننا نحن محبوسون معكم، لأننا بالقلب معكم، نشعر مثلكم، بما أنتم مدينون به من الشرف لجوده تعالى. والمحبة التي تجمعنا تجعلنا نفتخر بافتخاركم. ولا شئ يقطع المحبة متى كانت روحية. فان محبتى لكم، تحملنى الى حيث يحبسكم اعترافكم"<sup>(3)</sup>.

وفى رسالة أخرى يقول لبعض المعترفين المسجونين، مشيرا إلى قيودهم الحديدية: "ان هذه ليست سلاسل، انها حلى للزينة. أيتها الأقدام المقيدة التي للطوباويين، التي تقطع الطريق الى الفردوس!"<sup>(4)</sup>.

ويقول أيضا موجهها كلامه إلى كنيسة قرطاجنة: "فى أوقات الاضطهاد، تغلق الارض أمامنا، لكن السماء تفتح. ضد المسيح يهدد، لكن المسيح يعين. الموت يغلبنا، لكن الخلود يتبعنا. العالم يتحى عنا، والفردوس يقبلنا. تنتهي هذه الحياة القصيرة، لتبدأ الحياة الأبدية. يا له من شرف، يا له من سلام، يا له من فرح، أن نرحل هكذا فى مجد وسط الاضطهاد والضيق، ونغمض أعيننا عن العالم والبشر، لنفتحها فى وجه الله ومسيحه. يا لها من رحلة قصيرة!"<sup>(5)</sup>.

### الرعاية المادية:

فى تلك الأزمنة الصعبة، التي تعرض فيها المسيحيون لضغط الدولة ومصادرتها لممتلكاتهم وفصلها أيهم من وظائفهم، كما تعرضوا للدهماء والسوقة وهياجهم وحوادث نهبهم لبيوتهم.. كان لابد للكنيسة أن تعمل عملا، ترعى هؤلاء الذين يذودون عن الايمان، وتسد كل احتياجاتهم المادية. وقد أوفت الكنيسة هذه الناحية،

(2) Cyp. Ep. 2:5.

(3) Cyp. Ep. 37.

(4) Cyp. Ep. 86

(5) Cyp. : De Exhort. Martyr, 13.

عن طريق حثها الأخوة المؤمنين على الإسهام فى احتياجات المعترفين والشهداء، ثم بطريقة مباشرة عن طريق مساعدتها لهم على يد خدامها...

### (أ) بواسطة الأخوة المؤمنين:

كانت الكنيسة تحت أبناءها على مساعدة المعترفين فى حبسهم بكل أنواع المساعدات... ومعاملة المؤمنين المسيحيين لأخوتهم المحبوسين، مصورة تصويرا بديعا، فيما كتبه لوكيان Lucian عن حياة برجرنوس Peregrinus (فصل 12) فبعد أن شرح كيف أعتق هذا الشخص المسيحية فى فلسطين، استطرد قائلا "وأخيرا قبض عليه بتهمة المسيحية وألقى فى السجن".

ولما زج به فى السجن لم يترك المسيحيون وسيلة لاطلاق سراحه ثانية. ولما تبينوا استحالة هذا الامر، قاموا بكافة الخدمات التى يحتاجها بكل شغف. وكان يتجمع عند باب السجن منذ الصباح الباكر، نساء عجائز، وبعض الارامل، وأطفال صغار أيتام ينتظرون. أما الشخصيات البارزة منهم، فكانوا يستطيعون، حتى النوم داخل السجن، مع المعترفين المسجونين عن طريق رشوة السجانين. وهكذا كانت الوجبات الطيبة تحمل الى داخل السجن، وتقرأ الكتب المقدسة... بل ان بعض مدن مقاطعة آسيا - التى جاء منها بعض المسيحيين لزيارته - أظهروا استعدادا لمساعدته أمام القضاء، وبذل ما فى وسعهم لراحته... أخيرا أفرج عنه حاكم سوريا(6).

### (ب) بواسطة خدام الكنيسة:

كانت الكنيسة تجمع مبالغ ضخمة لصالح المعترفين والشهداء المضطهدين ويقول كبريانوس فى رسالة له: "بالنسبة للعون الذى يقدم لأولئك الذين زجوا فى السجن بعد أن اعترفوا باسم الرب، أمر الا يهمل فى أى شئ. لأن كل المبلغ المشار اليه وزع على الكهنة لهذا الغرض"(7).

وكدليل على رعاية الكنيسة المادية للمعترفين، ما أصدره كبريانوس من تعليمات بخصوص المعترف كلرينوس Celerinus، وكان قارنا (أغنسطسا) فى الكنيسة، اذ أمر أن يصرف له مرتب قسيس(8).

وهناك رسالة للقديس كبريانوس أسقف قرطاجنة دونها من مخبئه سنة 250 حيث كان مختفيا أبان اضطهاد ديسيوس - توضح لنا دور الكنيسة بالنسبة لرعاية المعترفين والشهداء ماديا:

(6) Dictionary of Christian Antiquities, Vol. 2, p. 1126.

(7) Cyp. Ep. 2:5.

(8) Cyp. Ep. 39.

"من كبريانوس الى أخوته الكهنة والشمامسة.. سلام. أيها الاخوة الاعزاء..  
اذكر أنى نبهتكم برسائل خاصة، وكررت التنبيه، أن تهتموا كل الاهتمام بالمسجونين،  
وقد اعترفوا بالرب اعترافا شريفا. وها أنذا أعود الى ما سبق، خوفا من أن تنقص  
عنايتكم بمن لا ينقصهم المجد. ولو كان وضعى يسمح لى بهذا الاهتمام، لما تأخرت  
عن القيام به عن طيب خاطر. لأن المحبة تحتم علينا هذه الخدمة نحو أخوة بواصل.  
لكنى أعتد على عزيتمكم، بأن تنوبوا عنى فى هذه المهمة. أعملوا كل ما ينبغى  
عمله نحو من أعزهم الله، بمثل هذه الفضائل من الايمان والقوة.. ثم انى طالما قلت  
لكم فى رسائلى، انه يجب الا ينقص اهتمامكم بالفقراء، ولا تضعف غيرتكم نحوهم.  
هؤلاء الفقراء الذين لم يغادروا معسكر المسيح، بل ظلوا ثابتين معنا فى الايمان  
والجهاد. ولتكن عنايتنا بهم، وحبنا لهم فوق صبرهم على الفقر، وفوق احتمالهم  
للاضطهاد، فانهم فى اخلاصهم للرب صاروا مثلا فى الايمان لجميع الفقراء.."(9).

ويؤكد القديس كبريانوس هذه المعانى فى رسالة اخرى الى اكليروس ايبارشيتيه  
فيقول:

"إنى اعتمد على محبتكم وتقواكم - ويكفينى ما بى من محن - وأسألكم، أنتم  
الذين لا خطر على وجودكم حيث أنتم، أن تنوبوا عنى فى السهر على ما يطلبه الدين  
من خدامه. اهتموا بالفقراء دائما بقدر امكانكم، إن كانوا على الأقل متمسكين بالإيمان  
ولم يهجروا معسكر المسيح".

"وعليكم أن تخففوا بغيرتكم بؤسهم، حتى لا تقدر الحاجة أن تنال من شقائهم، ما  
لم يقدر الاضطهاد أن يناله من إيمانهم. وليكن عندكم عناية خاصة بمعترفيننا الأمجاد  
فأنا عارف أن كثيرين منهم ترعاهم محبة اخوتهم. ولكن ان كان بينهم محتاجون الى  
المال، أو الى الملابس، فأعطوهم ما يلزمهم من ذلك..."(10).

### الرعاية الروحية:

#### (أ) لأشخاصهم:

كانت الكنيسة تسهر على روحيات هؤلاء المعترفين الذين تحت المحاكمة. ويبدو  
أن الإفراط فى تقدير الناس لموقفهم البطولى، وتكريمهم وتمجيدهم، جعل الكنيسة  
تنبههم الى الاحتراس من هذا المديح، وتحذروهم من السقوط روحيا... فكتب القديس  
كبريانوس الى كهنة وشمامسة ايبارشيتيه يقول:

(9) Cyp., Ep. 12.

(10) Cyp. Ep. 14.

"وليكن عندكم عناية خاصة بمعترفينا الأم اجد... ليعلموا فى الوقت نفسه بواسطتكم ما يطلبه منهم نظام الكنيسة فى أمانتها على وصايا الكتاب. فعليهم أن يكونوا متواضعين، ودعاء، وهادنين، لكي يحافظوا على شرف اسمهم "معترفين". لقد كانت كلمتهم مجيدة، فليكن سلوكهم الآن كذلك. يجب أن يصيروا أهلاً لنعمة الله. وهكذا ينالون الإكليل السماوى. وعلى كل، فالطريق أمامهم لم ينته. ويقول الكتاب "لا نمدحن أحداً قبل موته". ويقول فى موضع آخر "كن أميناً الى الموت فسأعطيك أكليل الحياة" أما الرب فإنه يصرح قائلاً: من يصبر إلى المنتهى يخلص. فليتشبهوا بالرب فإنه قرب آلامه لم يملاه كبرياء بل تواضعاً وحينئذ غسل أرجل تلاميذه وفسر عمله بقوله: إذ كنت أنا الرب والمعلم أغسل أقدامكم. فعليكم أنتم أن يغسل بعضكم أقدام بعض. أعطيتكم مثلاً حتى تعاملوا الغير كما عاملتكم. وليقتدوا بالرسول بولس، كيف ظل بعد السجن مراراً، وبعد الجلد والوحوش وديعا متواضعا فى كل حال. حتى بعد تذوق السماء الثالثة والفردوس، فإنه لم يستكبر: لم نأكل خبز أحد مجاناً، بل نعمل ليلاً ونهاراً، ونكد ونتعب كيلا ننقل على أحد منكم. فأسألكم أن تبلغوا هذه التعليمات الى أخوتى. وبما أن من يتضع يرتفع، فحينئذ يجب الحذر من فخاخ العدو. فإنه يتحدى من غلبه، ويكون أشد هولاً وشراسة، وهو مغلوب، حتى يثار من غالب ه. عسى الرب يقدرنى على رؤية معترفينا فألقى فى نفوسهم، بإرشاد خلاصى، مبادئ صالحة. إنى أتألم حقا حينما أسمع بسلوك بعضهم. إذ يسعون بلا حياء الى العار. فيقضون الوقت فى اللهو والمشاجرة. أيقنون أعضاء المسيح، وقد اعترفوا بالمسيح. ويفقدوا كرامتهم بأعمالهم الحقيرة؟ إن فى مسلك العدد القليل الفاسد منهم ما يشوه مجد العدد الكبير من المعترفين الأفاضل.. إن المعترف الحقيقى هو من لا تستحى الكنيسة به بل تفتخر به" (11).

### (ب) الصلاة لأجلهم:

وعلى نحو ما فعلت الكنيسة الأولى، حينما كان بطرس الرسول مطروحا فى السجن، إذ كانت ترفع صلاة بلجاجة الى الله لأجله (أع12)... هكذا أيضا الكنيسة فى زمان الاضطهاد، كانت تصير منها صلوات لأجل المعترفين والشهداء..

وما زالت أوشية المرضى التى تصلبها الكنيسة فى رفع البخور - وهى من القداس الكيرلسى أقدم قداساتنا - تحوى طلبات من أجل المعترفين فى ضيقاتهم "... الذين فى السجن أو المطابق، أو الذين فى النفى أو السبى أو المقبوض عليهم فى عبودية مرة، يارب اعتقهم جميعهم وارحمهم. لأنك أنت الذى تحل المربوظين وتقيم الساقطين. رجاء من ليس له رجاء، ومعين من ليس له معين. عزاء صغيرى القلوب، ميناء الذين فى العاصف. كل الأنفس المتضايقة والمقبوض عليها. أعطها يارب

رحمة، أعطها نياحا، أعطها برودة، أعطها نعمة، أعطها معونة، أعطها خلاصا، أعطها غفران خطاياها وأثامها...".

وفي الطلبة في القديس الكيرلسي أيضا يقول الكاهن: "حل المربوطين، خلص الذين في الشدائد". وفي صلاة تحليل الكهنة التي تعقب صلاة نصف الليل، يذكرهم الكاهن بقوله: "اذكر يارب... الذين في المطابق والسجون والذين في السبي والنفي... ردهم".

### (ج) الحفاظ على تراثهم وذخائرهم:

ونقصد بتراث الشهداء، تدوين سيرهم، والعذابات التي احتملوها، والمحاكمات التي حوكموا بها، والرؤى التي أعلنت لهم.. وقد اهتمت الكنيسة اهتماما بالغاً بحفظ هذا التراث، الذي ظل الى يومنا هذا، كنزا للبركة والتقوية والتعزيزية والمعونة (12).. واستغلت الكنيسة فرصة سماح الحكام لأقارب وأصدقاء المعترفين المحبوسين في السجون بزيارتهم، فكان خدامها يدونون كل كلمات الشهداء والامهم التي يحتملونها والرؤى التي تعلن لهم، وهكذا وصل هذا التراث الينا (13).

أما ذخائر الشهداء، فكانت تعنى الكنيسة بجمعها والحفاظ عليها كبركة عظيمة. ويقول القديس كبريانوس الى الاكليروس في ايبارشيتته "ويبقى أن تعنوا بأجساد من فارقوا هذه الحياة، وانتهوا الى نهاية مجيدة في السجون أو ماتوا بدون تعذيب... هذا وسجلوا انتقال هؤلاء الأخوة (وفاتهم) حتى نستطيع أن نحتفل بهم بين الشهداء، يوم احتفالنا بتذكارهم" (14).

وكانت الكنائس ترسل الى بعضها رسائل حاوية لآخبار الشهداء، كما فعلت كنيسة ازمير بخصوص استشهاد بوليكاربوس، وعلى نحو ما فعلت كنائس ليون وفينا، في رسالة الى كنائس آسيا الصغرى، تصف فيها الاضطهاد الذي حل بهم سنة 177 على عهد مرقس أوريليوس، ومن استشهدوا فيه (15).

### الحث على الاستشهاد

الى جانب اهتمام الكنيسة - شعبا وخداما - بالمعترفين والشهداء، من النواحي المادية والنفسية والروحية، فقد عملت الكنيسة على تعبئة مشاعر المؤمنين، وحفز

(12) De Pressensé: The Early Years of Christianity. Vol. 2ch.2.

(13) Cyp. Ep. 2:5.

(14) Cyp.: Ep., 12

(15) Martyrium Polycarpi (Documents of the Christian Church, pp. 12-16;

عواطفهم ومحبتهم وأشواقهم نحو الله، عن طريق ما أصدره بعض قادتها ومعلميها من كتابات للحث على الاستشهاد... ومن يطالع هذه الكتابات يلمس الحماس المتأجج، والروحانية المثالية، والمجد الذي ينتظر الشهداء.

ولعل أبرز الآباء والمعلمين الذين طرقتوا هذا الموضوع وكانوا يعيشون وسط نيران الاضطهاد هم:

العلامة أوريجينوس، والعلامة ترتليانوس، والقديس الشهيد كبريانوس.

### (1) العلامة أوريجينوس:

فيلسوف وعلامة مصري، ولد بالاسكندرية من أسرة مسيحية حوالى سنة 185م. اهتم والده بتربيته تربية مسيحية خالصة، وعلمه الكتاب المقدس، ثم تابع الدراسة على يد اكليمنضس الاسكندري.. استشهد والده سنة 202 ابان الاضطهاد الذى أثاره سبتيوس ساويرس. وكان موقف اوريجينوس الابن عجيبا. فقد كان يشجع والده على الثبات، وهو نفسه اشتهى أن يقدم نفسه للجلادين. وقد اضطرت أمه أن تخبئ ملابسها يوما كاملا حتى تعوقه عن الخروج للاستشهاد.

حل محل أستاذه أكليمنضس فى ادارة المدرسة اللاهوتية، وكان سنه وقتذاك سبعة عشر عاما. لكنه كان على معرفة وعلم كبيرين. كان دائما حارا بالروح، باشر ممارسات نسكية صارمة، وبدأ ينادى بها. عكف على دراسة الفلسفة كلازمة من لوازم عصره. قام برحلات كثيرة خارج مصر.

قبض عليه سنة 250 فى زمان الاضطهاد الذى أثاره ديسيوس، والقى فى السجن ونالته عذابات شديدة، لكنه لم يستشهد، بل أفرج عنه، وتوفى فى مدينة صور سنة 253 وله من العمر 69 عاما.. كان عقله من أخصب العقول التى شهدتها الكنيسة المسيحية، وخلف للكنيسة انتاجا رائعا. لكن ما يهمنا الآن فى بحثنا عن الاستشهاد هو كتابه "الحث على الاستشهاد".

كتب أوريجينوس كتابه "الحث على الاستشهاد" سنة 235. وقد أفرغ فيه خلاصة حماسه وأشواقه وخبرته، شابا وشيخا - وأرسله الى صديقيه الحميمين امبروسيوس وبروتوكتيتس Protocetus كاهن قيصرية، اللذين كانا قد قبض عليهما، وطرحا فى السجن بسبب الاضطهاد، الذى أثاره الامبراطور مكسيمينوس... والكتاب فى خمسين فصلا، يمكن وضعها تحت سبعة أقسام:

القسم الاول (1-5)، مقدمة فى الحث على الاستشهاد. وتأمل فى الآيات الواردة فى سفر أشعياء (9:11-11).



القسم الثانى (6-10)، يتضمن تحذيراً شديداً من عبادة الأصنام و الارتداد.

القسم الثالث ( 11-21)، ويتضمن حثاً للمثابرة على حمل الصليب مع المسيح (الشهادة لله - اتباع المسيح - جزاء الشهيد - وعودنا مع الله - مشهد أمام الجميع).

القسم الرابع (22-27)، يقدم أمثلة للاستشهاد فى قصة اليعازار والسبعة أخوة، الواردة فى سفر المكابيين الثانى.

القسم الخامس (28-44)، يتحدث فيه عن وجوب الاستشهاد، طبيعته وأنواعه (كأس الخلاص - لتعبر عنى هذه الكأس - معمودية الدم - المفاضلة بين الاستشهاد وعبادة الأصنام - المرتدون سينكرهم الابن).

القسم السادس (45،46)، يتحدث عن السمة الإجرامية للأصنام (عبادة الشياطين - أهمية الأسماء)

القسم السابع (47-50)، ويتضمن حثاً أخيراً على الثبات فى زمن الشدة.

ونقتطف بعض عبارات قليلة مما ورد فى هذا الكتاب:

+ أود خلال التجربة الحاضرة أن تذكرنا المجازاة العظيمة المعدة فى السماء للمضطهدين والمعيرين لأجل البر.. أفرحوا وابتهجوا وتهللاً، كما فعل الرسل حينما حسبوا أهلاً أن يهانوا لأجل اسمه. وإذا حدث أن شعرت نفسك ببعث الحزن، فدعا روح المسيح الذى فىنا يقول لتلك النفس.. لماذا أنت حزينة يا نفسى ولماذا ترعجينى. ترحى الله لانى بعد أحمده(1).

+ جمهرة كبيرة مجتمعة لمشاهدة كما حينما تجاهدان، وتدعيان للاستشهاد... ان الآفا تحتشد لمشاهدة نزال يشترك فيه بعض من ذوى الشهرة البارزة. حينما تدخلان المعركة يمكن أن تقولوا مع بولس : صرنا منظراً للعالم للملائكة والناس : اذن، فالعالم كله، الملائكة جميعاً عن اليمين واليسار. الناس طراً الذين هم الى جوار الله، والآخرين، الجميع سيسمعوننا ونحن نقاتل من أجل المسيحية. فإما أن الملائكة تبتهج والأنهار تصفق بالايدي، والجبال ترنم معاً، وكل شجر الحقل تصفق بأغصانها، وأما لا سمح الله تحدى قوات العالم السفلى فى جريمتنا وتشمت(2).

(1) مز 43 :5.

Origen: Exhortation to Martyrdom 4.  
Origen: Exhortation to Martyrdom,18.

(2) مز 8:98 مع أش 12:55 .

+ "لنقاتل حتى ما نؤدى شهادتنا كاملة، ليس فقط علانية، بل فى الخفاء أيضا، حتى ما نستطيع أن نقول مع الرسول: لأن مجدنا هو هذا، شهادة ضميرنا أننا فى قداسة واخلاص الله... تصرفنا فى العالم (2كو 1: 12) ولنضف الى كلمات الرسول، قول النبى: لأنه هو يعرف خفيات القلب (مز 44: 21).

وهذا حق خاصة ونحن نساق الى الموت، ونقول لله ما يقوله، الشهداء وحدهم له: لأننا من أجلك ن مات اليوم كله. قد حسبنا مثل غنم للذبح (مز 22: 44). وإذا كانت حكمة الجسد ستجعلنا نهاب القضاة، الذين يهددوننا بالموت، فننقل لهم كلمات الأمثال: يا أبنى اكرم الرب تصير قويا. لا ترهب انسانا سواه"(\*)

## 2- العلامة ترتليانوس:

يعتبر ترتليانوس أب علم اللاهوت فى الكنيسة اللاتينية من حيث فضله على تقدم المصطلحات اللاهوتية، ومن أعلام المسيحية القدماء نعرف القليل عن حياته مما تضمنته كتبه، وما ذكره عنه القديس ابرونيموس فى كتابه "مشاهير الرجال".

ولد حوالى منتصف القرن الثانى المسيحى فى قرطاجنة، حيث كان والده يشغل منصب قائد فرقة رومانية تحت امرة حاكم أفريقيا. تتفك ثقافة هيلينية لاتينية متحررة. وتظهر كتاباته معرفة كبيرة بالتاريخ والفلسفة والشعر والادب القديم والمصطلحات القضائية وكل فنون المحاماة. ويبدو أنه أشغل بالسياسة والمحاماة اما فى قرطاجنة أو فى روما.

عاش وثنيا حتى سن الثلاثين أو الاربعين ثم اعتنق المسيحية وان كنا نجهل الظروف التى صاحبت هذه الخطوة، لكن ذلك تم عن اقتناع عميق، ومنذ ذلك الوقت دافع عن المسيحية بلا أدنى خوف ضد هجمات الوثنيين واليهود والهرطقة. وبين سنتى 199-203 اعتنق هرطقة المونتانيين<sup>(3)</sup> Montanism ولا نعرف تاريخ وفاته على وجه الدقة، لكنها كانت بعد سنة 220. ويتضح جليا من مؤلفاته احتقاره للديانة الوثنية، ولثقافة الوثنية، وحماسه الشديد للمسيحية.

كتب كتبا كثيرة، لكن ما يهمنى فى هذا الصدد، هى كتبه فى الحث على الاستشهاد، وكتبه الدفاعية. ويكاد يكون أهم ما كتبه فى الحث على الاستشهاد مقالة قصيرة عامة من ستة فصول معنونة "الى الشهداء Ad Martyras" لكتبها بين سنتى 198/197. وهى مقالة مملوءة حماسا وتشجيعا ليقاوم الانسان عواطفه<sup>(4)</sup>. ونعرض لمقتطفات منها، يقول:

(\*)Exhortativn to Mortyrdam 21

(3) نسبة الى مونتانوس الذى ادعى أنه البارقليط الموعود به فى الانجيل.

(4) Dictionary of Christian Biography. vol. 4, pp.822.

"لا تجعلوا انفصالكم عن العالم يخيفكم. فلو أمعنا النظر في أن العالم هو في الواقع السجن الحقيقي، فسنعرف إنكم لم تدخلوا سجننا، بل بالأولى خرجتم من سجن!... لذا احسبوا - أيها المباركين - انكم انتقلتم من سجن الى مكان آمن. وإن كان مفعماً ظلاماً، لكنكم أنتم أنفسكم نور. فيه قيود، لكن الله قد حرركم. تعبه الروائح الكريهة، لكن انتم رائحة زكية. تنتظرون المحاكمة كل يوم، لكنكم ستدينون القضاة أنفسهم. هناك الحزن، لكن لمن يشتاق الى مباحج الدنيا. المسيحي خارج السجن قد رفض العالم، لكنه في السجن، قد رفض السجن أيضا. لا يهم أين تكونون في العالم، أنتم الذين لستم من العالم.."(5).

"بالنسبة للمسيحي، فان السجن يقدم له نفس الخدمة التي تقدمها البرية للنبي. لقد قضى ربنا نفسه وقتا كبيرا في الوحدة، حتى ما يكون أكثر حرية في الصلاة، وحتى ما يتحرر من العالم. ولقد كان في خلوة جبلية أيضا حينما تجلى بمجده لتلاميذه. هل لنا أن نسقط من حسابنا كلمة سجن! وندعوه مكان خلوة؟ ولو أن الجسم مغلق عليه، والجسد محبوس، لكن كل شئ مفتوح أمام الروح. إذن، بالروح تجول خارجا. بالروح تمشي، غير واضح أمامك الممرات ذات الظل أو ذات الأعمدة، بل الطريق المؤدى الى الله. وبقدر ما تكون خطواتك في الروح دائما، بقدر ما تكون حرا من القيود حينما يكون العقل محلقا في السماويات، لا تشعر الساق بالسلسلة التي تقيدها فالعقل يطوق الانسان كله، ويحمله الى حيثما يريد. حيث كنزك هناك يكون قلبك. فليكن قلبنا في الموضع، حيث نود أن يكون كنزنا..."(6).

"أنتم على وشك خوض معركة الشرف، وفيها الله الحي هو رقيبكم، والروح القدس مديركم، والجزاء إكليل أبدي ملائكي، وحق المواطنة في السماء، ومجد دائم. لذلك فان سيدكم يسوع المسيح، الذي مسحكم بروحه، وقادكم الى مسرح العذاب، قد رأى من الخير - قبل يوم القتال - أن ينقلكم من حالة - هي في ذاتها مرضية، معاملا إياكم بصورة أقسى حتى ما تصبح قوتكم اكبر..."(6).

### 3- القديس كبريانوس الشهيد:

ولد وثنيا حوالي سنة 200 أو قبل ذلك، من أسرة شريفة ثرية تتقف ثقافة عالية حسب مقتضيات العصر والوضع الاجتماعي. ويبدو أنه عاش منغمسا في الرذيلة شأن معظم شباب عصره، لكنه اهتدى الى المسيح، وأمن على يد كاهن يدعى كيكيليوس Caecilius، وانضم الى صفوف الموعوظين. ثم باع أملاكه ووزعها على الفقراء، مستبقيا القليل منها لسد احتياجاته. نذر العفة، ونال نعمة العمد سنة 245

(5) Tertullianus: Ad Martyras, ch. 2,3.

(6) Tertullianus: Ad Martyras, ch. 2,3.

أو سنة 246... ثم سيم أسقفا على قرطاجنة بناء على رغبة شعبها سنة 249. وأخيرا بعد جهاد حافل في تلك الفترة الصعبة بسبب الاضطهادات، نال إكليل الشهادة في 14 سبتمبر سنة 258.

بدأ كبريانوس أسقفيته مع الاضطهاد المروع، الذي أثاره الإمبراطور ديسيوس (249- 251) على الكنيسة المسيحية. أختبأ بعض الوقت حتى زال الاضطهاد، ويبدو أنه فعل ذلك بإعلان الهى. فلا عجب إذن ان حوت كثير من رسائله التي أرسلها من مخبئه تشديدا للمعترفين في السجون والمناجم، واطهارا لمجد الاستشهاد وتوصية للخدام والاكليروس بالعناية بالمعترفين والشهداء، ماديا ونفسيا وروحيا.

وبين كتاباته مقالة معنونة "حث على الاستشهاد" موجهة الى ف رتوناتس Fortunatus من ثلاثة عشر فصلا. ومقالة أخرى عن "مجد الاستشهاد" منسوبة اليه، لكن صحة هذه النسبة تحتاج الى اثبات والآن نعرض لبعض أقواله:

"نحن الذين - بسلطان من الرب - منحنا المؤمنين العماد الأول، علينا أن نعد كلا منهم للعماد الثانى، بحثهم وتعليمهم. ان هذا العماد أعظم فى النعمة، وأسمى فى القوة، وأرفع فى الشرف إن الملائكة فى هذا العماد يعمدون، والله ومسيحه يبتهجان، ولا أحد بعد هذا العماد، يسقط فى خطية. هذا العماد يكمل نمونا فى الإيمان، ويغرسنا فى الله بعد أن نخرج من العالم... بمعمودية الماء ننال مغفرة الخطايا؟ وبمعمودية الدم نظفر بأكليل الفضائل"(7).

"فى سفر الخروج كان الشعب اليهودى - كمثل سابق لنا - مع الله وليهم والمنتقم لهم، خلصوا من عبودية فرعون ومصر القاسية جدا، أى من الشيطان والعالم. وإذ كانوا بلا إيمان وغير شاكرين لله، تقمقموا على موسى، ناظرين الى متاعب الصحراء وشغلهم، غير فاهمين الفوائد المقدسة للحرية والخلاص. ففكروا فى العودة الى عبودية مصر. بينما كان يجب عليهم أن تزداد ثقتهم فى الله، الذى أنقذ شعبه من الشيطان والعالم ويقدر أن يحميهم أيضا. قالوا لموسى "ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر... لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت فى البرية. فقال موسى لهم. لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذى يصنعه لكم اليوم... الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون" (خر 14:11-14). والرب فى انجيله، يحذرنا من ذلك، ويعلمنا ألا نعود ثانية للشيطان وللعالم الذى رفضناه، وحيثما ننجو يقول "ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح لملكوت الله (لو 9:62). وأيضا "والذى فى الحقل لا يرجع الى الوراء - اذكروا امرأة لوط" (لو 17:31، 32)"(\*)

(7) Cyprian: Exhortation to Martyrdom, ch. 4.

(\*)Exhortation to Mortyrdam ch. 4.

"يجب أن تعلموا - فى إيمان و يقين - ان يوم الشدة قد حل يهددنا بالموت،  
وتقترب نهاية العالم وزمان المسيح الدجال. لذلك يجب أن نقف جميعا على أهبة  
الاستعداد للمعركة، غير واضعين أماننا سوى مجد الحياة الأبدية، واكليل اعترافنا  
بالرب، غير مهتمين بالأمور المقبلة، لأنها ستنتهى كما انتهى ما سبقها. إننا على  
أبواب حرب أقسى وأشد. وعلى جنود المسيح أن يعدوا ذواتهم لها بإيمان حى  
وشجاعة قوية، واضعين فى اعتبارهم أنهم يشربون يوميا كأس دم المسيح، حتى  
بذلك يمكنهم أن يسفكوا دماءهم لأجله. إن كل ما نبتغيه هو أن نوجد مع المسيح، وأن  
نقتدى بما علمنا إياه، وما صنعه، حسبما يقول يوحنا الرسول: من قال أنه ثابت فى  
المسيح ينبغى أنه كما سلك ذاك هكذا يسلك هو أيضا (1يو:2:6) فضلا عن ذلك، فإن  
الرسول بولس يعلمنا قائلًا: إننا أولاد الله. فإن كنا أولادا فإننا ورثة أيضا. ورثة الله  
ووارثون مع المسيح. إن كنا نتألم معه لكى نتمجد أيضا معه (رو:8:16، 17)\*".

### دفاعات المدافعين المسيحيين

تعرضت المسيحية لهجمات القوى الوحشية المادية، وايضا لهجمات الفلاسفة...  
للسيف والقلم. وقد أجابت على الأولى بثبات أتباعها البطولى، الذين وضعوا حياتهم  
ذودا عنها. فصاتوا حيويتها الدائمة. أما تحديات الفلاسفة الوثنيين المتعجرفين الذين  
يمثلون حكمة العالم القديم المنتفخة، فقد فندتها، وأبكتها، بل وهدمتها وهاجمتها،  
بالكتابات الفذة التى دبجتها يراع الفلاسفة المسيحيين فى دفاعهم عنها...

لقد اتجهت كتابات الدفاع عن المسيحية فى القرن الثانى نحو اليهودى الغيور،  
والفيلسوف اليونانى، والسياسى الرومانى. وكان المسيحيون من البدء "مستعدين  
لمجابهة كل من يسألهم عن سبب الرجاء الذى فيهم" ... وكان لابد للمسيحيين أن  
يضيفوا الى شهادتهم العملية البسيطة، دفاعا نظريا، يدفعون به عن أنفسهم أشد  
الاتهامات الباطلة..

وتتلخص هذه الاتهامات فى الآتى:

كانت المسيحية ديانة حديثة. ومن جهة قدمها، لا تقارن بديانات الآلهة الوثنية،  
والشعوب الأخرى (1).. كانت ديانة غريبة، مختلفة تماما فى نوعها عن الديانات  
الأخرى.. بلا معابد أو تماثيل، أو مذابح تقدم عليها ذبائح دموية (2)، أو على الأقل أى  
شئ مما يرى من هذا القبيل (3). وهى ديانة سرية (4)، تعقد اجتماعاتها مساء، ولا

(\*Epist. to the people of Thibaris ch. 1.

(1) Epist. Ad Diognetum, ch. 1; Arobius, adv. Gentes, 2:67,69.

(2) Origen: Contra Celsum, 7:61.

(3) Minucius Felix: Octavius, ch. 8, 9.

(4) Minucius Felix: Octavius, ch. 8, 9.

يسمح بحضورها الا لاعضاءها الذين نالوا سر العماد (5). كانت ديانة تنتشر كل يوم بين كل الطبقات وخاصة بين النساء، والجهلاء، والمجرمين(6) ..

كانت المسيحية هي الديانة التي وجهت ضدها أخطر الاتهامات : فقد اتهم المسيحيون بالفساد الشنيع(7)، وبالكفر(8)، وبالخيانة للإمبراطور والدولة (9)، وبأنهم مواطنون غير منتجين(10) ..

كان من الضروري أن تفند هذه الاتهامات، وتزال هذه العوائق الأولية حتى ينجح المسيحيون في مهمتهم. فقبل أن يقبل الوثنيون الى المسيحية ويؤمنوا بالمسيح، يجب أن يقتنعوا أن المسيحيين، ليسوا فاسدين أو كفرة أو خونة...

ولذا فقد ظهرت طبقة من المسيحيين عرفوا باسم المدافعين أو المحتجين Apologists أى المدافعين عن الإيمان، كانت مهمتهم تبرئة المسيحية مما نسب إليها ظلما وخطأ، وتقديم مفاهيم سليمة عنها لغير المؤمنين..

قال هؤلاء المدافعون للوثنيين "أضربوا. ان كان يجب أن تضربوا، لكن اسمعونا أولا. لا تبيدونا عن وجه الأرض حتى تعرفوا القليل عنا"(11) "لا تكونوا غير عادلين حتى تحكموا علينا، دون أن تسمعونا (12) .. أنتم تنزلون بنا العقاب، لمجرد كوننا مسيحيين، لكن يقينا، أنه لا يوجد شئ في مجرد الاسم(13) .." لديكم أفكار ملتبسة، أننا أناس أشرار، لكنكم مخطنون، فحياتنا طاهرة، نعبد الله، ونحن أوفياء للإمبراطور..

مثل هذا كان عمل المدافعين. لم تكن مهمتهم تعليم الحق، لكن إعداد السبيل للتعليم، هم لا يبرهنون على صحة المسيحية كديانة الهية من الكتب المقدسة لكنهم يثبتوا أنها ليست غير معقولة على الاطلاق أو ضارة. هم يزيلون أحجار العثرات، ويثيرون حب الاستطلاع.. لذلك فقلما يقتبسون من الاسفار المقدسة، لكنهم يستشهدون بها دواما. يتكلمون عن قدمها وأنها سابقة لجميع الكتب الاخرى، ويشيرون الى صحتها وخلوها من أى خطأ، بالمقابلة مع أساطير الآلهة الوثنية.. يصفون اتفاقها وبساطتها بمقابلتها بأقوال الفلاسفة الصعبة المتعارضة. يؤكدون اتمام النبوات - التي لا يرقى الشك الى قدمها - فى حياة المسيح، وقيام ديانته... لقد كتبت الدفاعات لمصالحة الاعداء، ولذلك فقد جاءت الحجج حسبما سمحت

(5) Justin Martyr: Apol. 1 : 65,66.

(6) Origen: Contra Celsum 3:44,49; Justin: Dialogue. ch. 117.

(7) Tert. Apol. ch. 7:39 Minucius Felix: Octavius, ch. 9.

(8) Athenagoras, Plea, ch. 3,4.

(9) Tert. Apol, ch. 35, 39.

(10) Tert. Apol, ch 42.

(11) Tert. Apol, ch 1:3.

(12) Justin Martyr. Apol. 2, ch. 2, 3.

(13) Athenagoras: Plea, ch. 1,2.

الظروف(14).

والآن نعرض للمدافعين الذين دافعوا بقلمهم عن المسيحية، ثم لدفاعهم، ونعرض بعد ذلك لقيمة هذا الدفاع.

أولا: المدافعون:

بدأت كتابات الدفاع تظهر في عهد الإمبراطور هديران ( 117-138). ومعظم كتابات الدفاع الأولى، من أمثال كتابات كوادراتوس، وارستيديز الاثنييين، وكتابات ميليتو **Melito** أسقف ساردس المتأخرة، وكلوديوس أبولليناريس **Claudius Apollinaris** وملتياديز **Miltiades** ، إما أنها فقدت تماما. أو تبقى منها بعض عبارات مبعثرة فيما كتبه يوسابيوس القيصري في تاريخه. وان كان بعض كتابات ميليتو وارستيديز الهامة عثر عليها مؤخرا.

يأتى بعد ذلك الدفاع القيم الذى قدمه يوستينوس الشهيد حوالى سنة 147 أو قبل ذلك بقليل، ومازال فى أيدينا كاملا. بعده جاء تلميذه تاتيان **Tatian** ، واثيناغوراس، وثاوفيلس الانطاكى، وهرمياس فى النصف الاخير من القرن الثانى، وهيبوليتس **Hippolytus** ، واكليمنضس الاسكندري وأوريجينوس العظيم، فى النصف الأول من القرن الثالث.

كان هؤلاء جميعا من الفلاسفة، وكتبوا دفاعاتهم باللغة اليونانية أما أشهر المدافعين الذين كتبوا باللاتينية فهم : ترتليانوس الذى قدم دفاعه بين سنتى 197، 198، ومينوكيوس فيلكس **Minucius Felix** ثم أرنوبيوس **Arnobius** ولكتانتويس **Lactantius** وهو آخر المدافعين. وقد عاش بعد زمان الاضطهاد، وصار معلما لكريسبس **Crispus** ابن قسطنطين، أول أمبراطور مسيحي. وكان هؤلاء جميعا أفريقيين بحكم موطنهم، اشتغلوا بالمحاماة أو بتدريس البلاغة(15).

وعلى أية الحالات، فان جميع المدافعين استخدموا نفس البراهين والحجج تقريبا، وجميعهم أظهروا الفضائل المسيحية فى مواجهة قوية لردائل الوثنية وقبائحها. وجميعهم اطنبوا فى الكلام عن بطولة الشهداء(16).

بعض المدافعين قدموا دفاعهم للأباطرة أو حكام الأقاليم كما فعل كودراتس وارستيديز، حينما توجهوا بدفاعهما إلى هديران. ويوستينوس الشهيد إلى أنطونينوس بيوس. واثيناغوراس، وميليتو، وأبولليناريس، الى مرقس أوريليوس. وترتليانوس

(14) Watson: Defenders of the Faith, ch. 3.

(15) Schaff, Vol. 2, pp. 104-107

(16) De Pressense, Vol. 2, p. 526.

إلى الحكام الأفريقيين. وبعضها وجهت الى أشخاص خصوصيين، أو لجمهور الشعب عامة.

هكذا كتب ثاوفيلس الانطاكي ثلاث رسائل إلى أوتوليكس **Autolycus** الوثني. ووجه تاتيان كلامه إلى اليونانيين، وترتليانوس وأرنوبيوس كتابا إلى الأمم. وغالبا ما كانت تظهر هذه الدفاعات، في وقت ضجة شعبية، لازالة جميع الادعاءات التي يروجها الوثنيون، لشن الاضطهاد ضد المسيحيين.. لكن هناك كتاب واحد كتبه أوريجينوس، رد به على فيلسوف وثني يدعى كلسوس **Celsus** ، كان قد كتب كتابا هاجم فيه المسيحية<sup>(17)</sup>.

### ثانيا: دفاع المدافعين:

#### 1- ضد اليهودية:

بالنسبة لهذا الامر لنا مصدران رئيسيان:

حوار يوستينوس الشهيد الفيلسوف مع تريفو **Trypho** اليهودي، الذي تم في مدينة أفسس. وما كتبه ترتليانوس العلامة ضد اليهود والمعنون **Adversus Judaeos** وهناك تأليف آخر من النصف الاول من القرن الثاني من عمل أرسطو من بلا **Aristo of Pella**. معنون "حوار جاسون وبابسكوس عن المسيح **Jason, Papiscus**. والكتابان الاولان مازالا بين أيدينا، أما الثالث فظل معروفا حتى القرن السابع<sup>(18)</sup>. وكان يهدف أظهار اتمام النبوات القديمة في المسيح. وينتهي هذا الحوار باقتناع بابسكوس اليهودي، وعماده على يد جاسون. ومؤلف الكتاب يهودي متنصر من بلا، وهي المدينة التي لجأ اليها مسيحيو أورشليم قبل خرابها.

#### 2- ضد الوثنية:

نستطيع أن نجمل الاتهامات التي وجهها الوثنيون ضد المسيحيين، في ثلاثة اتهامات رئيسية من حيث النوع<sup>(19)</sup> :

(أ) اتهام أخلاقي - ادعوا فيه أن المسيحيين يحيون حياة فاسدة فاجرة.

(ب) اتهام ديني - فقد قالوا أن المسيحيين كفره بلا دين، أو يدينون بدين فاسد. وبسببهم تحل الكوارث نتيجة غضب الآلهة، وهم أعداؤها.

(17) Watson: Defenders of the Faith, ch.3.

(18) كان معروفا لكلسوس الفيلسوف الوثني، وأشار اليه باحتقار. كما أشار اليه أيضا أوريجينوس، وقال عنه انه نافع للقارئ العادي دون العلماء.

(19) Watson: Defenders of the Faith, ch. 4.



(ج) اتهام سياسى - ادعوا فيه انهم خونة للامبراطور، وأعداء للصالح العام، وأنهم يؤلفون جماعة سرية.

والاتهامان الاول والثانى، أثارا كراهية عامة للناس، وكانا سببا فى قيام اضطرابات وهياج شعبى.. أما الاتهام الثالث فكان هو أساس الاتهام الرسمى حينما كانوا يقدمون للمحاكمات.

والآن نعرض لهذه الاتهامات الثلاث، وملخص بردود المدافعين المسيحيين بشأنها:

### (أ) الاتهام الاخلاقى:

ويبدو أنه كان الاتهام البارز. ولا شك أن أساسه الغيرة التى تولدت عن الشك، الذى كان ينظر به إلى اجتماعات المسيحيين السرية، التى كانت تعقد ليلا. فقد جاء فى خطاب بلينى الأصغر حاكم مقاطعة بيثينية بآسيا الصغرى إلى الإمبراطور تراجان سنة 112، أن المسيحيين كانوا يجتمعون معا قبل انبلاج الفجر ليقدموا العبادة للمسيح. وبينما الظلام باق، كان الزوج الوثنى يبحث عن زوجته - التى آمنت بالمسيح - فلا يجدها الى جواره، فكان يساوره الشك الغامض (20). وقياسا على ما كان يحدث فى الطقوس الوثنية، فقد ظنوا إن الاجتماعات السرية المسيحية، اجتماعات غير مقدسة. وسرعان ما سرى الشك كنتيجة للتصرفات الغامضة.

وبخصوص حفل التثبيت فى الجماعة، قيل أنها جريمة شنيعة(21). وثار لغط شديد بخصوص مائدة العشاء المسيحية المتواضعة (22) أشاعوا أن المنتصر حديثا، كان يتسبب فى طعن طفل بسكين حتى الموت. وبعد ذلك ينقض عليه الجميع بسرعة وشراهة، ويمزقونه إرباً إرباً ويلتهمونه. وتستمر اللذة فى التزايد. وعند اعطاء اشارة معينة تطفأ الأنوار، وينغمس الجميع فى شهوة بلا تمييز. ويذكر لنا أوريجينوس أن اليهود هم أصحاب هذه الاتهامات ومروجوها(23).

وعلى أية الحالات، فمن السهل الوصول إلى أساس هذه الشائعات لقد سمع الوثنيون عن مائدة الافخارستيا - جسد المسيح الذى يؤكل، ودمه الذى يشرب. وسمعوا أيضا عن ولائم المحبة. فبالنسبة للأولى كانوا عاجزين عن ادراكها روحيا. وبالنسبة للثانية، لم يكن لها سوى معنى واحد، بالنسبة لتخيل دنس. فالحب والشهوة الجسدية بالنسبة للوثنى فى ذلك الوقت. كانا هما المفهومين المسيطرين على فكره.

(20) Tertullianus: Ad Uxorem 2:4.

(21) Minucius Felix: Octavius, ch. 9.

(22) Tert. Apol. ch. 39.

(23) Origen: Contra Celsum, 6:27; Justin Martyr: Dialogue, ch, 17.

وكانت الاحتفالات الدينية الوثنية، والفساد الشنيع، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بخبراته.  
وكانت الطهارة أمراً نادراً لدرجة الشك في إمكان وجودها. وكان ضبط الغريزة  
الجنسية - حسب فكره - ليس سوى رداء يخفى الفساد المستتر. ومن هنا فقد شوه  
الوثني ولائم المحبة المسيحية، وأعتبرها تهتكاً متطرفاً. وحسب الاعتداء بجسد  
المسيح ودمه، قتل طفل والتهامه(24).

ويؤكد ترتليانوس - فيما يختص بهذه الاتهامات - ان الوثنيين كاذبون في  
شائعاتهم.. فقد ظلت الاجتماعات المسيحية محتفظة بسريتها تماماً. يقول: "يضيق  
علينا الأعداء كل يوم، ويخونوننا كل يوم، وكثيراً ما نفاجاً في اجتماعاتنا. ومع ذلك  
هل رأى أحد طفلاً يولول؟ أو اكتشف أحد أى أثر للدنس في زوجته؟ أين الانسان الذى  
بعد أن اكتشف مثل هذه الفظاعة تستر عليها؟ أم انه بينما كان يساق المتهم أمام  
القاضي، ارتشى ليلود بالصمت (25). وكحقيقة نقول أن السلطات - من وقت لآخر -  
بذلت قصارى جهدها لتجمع أدلة، لكنها فشلت. ويقول يوستينوس الشهيد، أن بعض  
الإماء أرغمن تحت التعذيب أن يعترفن بهذه الاتهامات كأمر واقعياً تحدث (26). وقد  
استقصى بلينى الأصغر عن حقيقة المجتمع المسيحي بكل دقة، فلم تثره، بل على  
العكس كانت فى نظره "خرافة غير معقولة ومتطرفة". كان المسيحيون - فى نظره -  
يسيطر عليهم افتتان، وهم ممتلئون من "عناد نابذ للطاعة ولا يلين" ... كانت هذه  
الأوصاف هى أسوأ ما قاله بلينى.

لقد بحث واستقصى، ولم يجد أى سند لاتهام بالجريمة، استجوب المرتدين -  
وكانوا بطبيعة الحال - على استعداد تام، من أجل نجاتهم، أن يجدفوا على اسم  
المسيح، ومع ذلك لم يجرأوا أن يلطخوا سمعة المسيحيين الطيبة، ولم تذهب شهادتهم  
الى أبعد من الآتى: أن المسيحيين يجتمعون معا قبل طلوع الفجر للصلاة للمسيح،  
وليرتبطوا جميعاً معا بواسطة سر مقدس، ليمتنعوا عن كل الشرور، وليأكلوا معا أكلة  
غير ضارة(27).

لقد وقعت شماستان فى يد بلينى الأصغر، وأمر بتعذيبهما، ومع ذلك لم يتمكن من  
انتزاع أى أقوال تتفق ورضه. والنتيجة التى وصل إليها بلينى، هى أن المسيحيين  
يعتقدون فى خرافات، وأنهم عنيدون، وغير مستعدين لاطاعة القانون، لكنهم ليسوا  
مجرمين.. ونستطيع أن نلخص خطاب بلينى إلى تراجان فى الكلمة الآتية: لا أجد  
وسيلة ضد هؤلاء الناس، إلا إذا كان ذلك فيما يختص بشريعة إلههم.

(24) Watson: Defenders of the Faith, ch 4.

(25) Tert. Apol. ch. 7.

(26) Justin: Apol. 2, ch. 12.

(27) Documents of the Christian Church. pp. 3-5; Watson : Defenders of the Faith, ch. 4.

حدثت تحريات بليني في أوائل القرن الثاني في مقاطعة بيثينية بآسيا الصغرى. وبعدها بنحو نصف قرن أو يزيد، حدث اضطهاد شديد في بلاد الغال (فرنسا الحالية)، وانتشرت تقارير عن رذائل المسيحيين بين عامة الناس، فثاروا عليهم كالمجانين، وقد أرسلت كنائس فينا وليون الى كنائس آسيا وفريجيا، وصفا لحوادث الاستشهاد دونه لنا يوسابيوس في تاريخه.. جاء فيه أن التعذيب الشديد دفع بعض الاماء الوثنيات أن يتهمن سادتهم زورا بأكل لحوم البشر والفسق بالمحارم<sup>(28)</sup>.

واحداهن تدعى ببلياس **Biblias** - كانت قد انكرت الايمان أولا، ثم استعادت قوتها تحت الآلام، بصلوات الشهداء المجاهدين - وقفت في وجه المجدفين قائلة: "كيف يستطيع هؤلاء أن يأكلوا الاطفال، وهم يحرمون أن يذوقوا حتى دماء الحيوانات غير العاقلة" ..

وأثالوس **Atallos** الذى من برغامس، عندما وضعوه على الكرسي الحديدى واشعلوا النار تحته، وتصاعد الدخان من جسده المشوى قال للشعب "ان هذا الذى تفعلونه أنتم هو التهام للبشر، أما نحن فانا لا نأكل البشر، ولا نرتكب أى شئ آخر<sup>(28)</sup> .

وقد أشار المدافعون المسيحيون إلى أمثال هذه المشاهد البطولية، وتساءلوا عما إذا كان من الممكن أن "أناسا يموتون كما ترونهم يفعلون، يعيشون على نحو ما تقولون أنهم يفعلون"<sup>(29)</sup>.

والحق أن ميتات المسيحيين كانت شهادة تثبت طهارة الحياة المسيحية. فحياة التساهل مع النفس ليست إعداءاً لموت شهيد، لكن أولئك الذين كانوا دائما يصلبون الجسد مع الاهواء والشهوات، بناء على طريقة روحية، هم الذين يحتمل - فى ساعة التجربة - أن يحتملوا فى شجاعة، أكثر الآلام رعبا.

لقد رأى أحد المدافعين - وهو يوستينوس الشهيد - وكان مايزال وثنيا، فى شجاعة المسيحيين واستعدادهم لتحمل العذاب والموت، دليلا قويا على خلو حياتهم من الشر والخلاعة والدنس<sup>(30)</sup>.

وقال اثيناغوراس إن أخلاق المسيحيين العالية تدرأ عنهم مثل هذا الاتهام الظالم لأن المسيحيين يعتقدون فى الله أنه رقيب على أفكارهم وحركات قلوبهم، وانهم سيدانون على كل فكر شرير، وهم يصونون ذواتهم عن النظرة الشريرة، فكم بالاولى يعفون عن الافعال الدنسة؟! أن شريعتهم تقيدهم باعتبار الاقرباء كنفوسهم، فمن ثم

(28) يوسابيوس 5: 1.

(29) Tert: Apol., ch. 50; Justin: Apol. 2:12.

(30) Justin: Apol., 2:12,13.

يطالبون بأن يصونوا طهارة جسوم أخواتهم فى المسيح. ثم هم يزدرون بشهوات الحياة الحاضرة.

والبعض منهم يحيون حياة ظهر كامل، اذ نذروا أنفسهم لله، واختاروا البتولية، واتجهوا الى الله بالكلية. وبعضهم الآخر وان تزوج فيقصد انجاب البنين فقط، ويبغضون الزيجات الثانية، ويعتبرونها نوعا من الزنى المتستر، أى أنهم يقتنعون بالزيجة الواحدة. فليس عند المسيحيين اختلاط أوديبى. وهو فى الحقيقة يصدق على الوثنيين، وآلهة الوثنيين لا على المسيحيين. وكأنهم فى اتهامهم المسيحيين أيدوا صدق المثل القائل "العاهرة تعير العفيفة"<sup>(31)</sup>.

والمدافعون المسيحيون - وهم بصدد دفع هذه الاتهامات - بالاضافة الى الحالة التى واجه بها المسيحيون الموت، استشهدوا بحياة المسيحيين.

يقول أوريجينوس فى فاتحة كتابه الاولى ضد كلسوس "لما أحضروا شاهد زور، ليشهد على مخلصنا المبارك - يسوع الذى بلا خطية - كان محتفظا بسلامه - ولما أنهم لم يجب، اذ كان مقتنعا تماما أن حياته وسلوكه بين اليهود كانا هما أبلغ احتجاج يمكن أن يقدم لصالحه... ومازال حتى الآن يحتفظ بنفس الصمت. ولا يقدم إجابة أخرى سوى الحياة الطاهرة التى يحيها أتباعه المخلصون، فهم أكثر مدافعيه نجاحا وبهجة. ولهم صوت عال، به يسكتون ضجة أكثر أعدائهم حماسا وتعصبا"<sup>(32)</sup>.

كما أشار المدافعون إلى التغير الذى أحدثته المسيحية فى حياة الكثيرين يقول يوستينوس الشهيد "هم (الوثنيون) يحسبوننا مجانين، لأننا نعبد هذا المسيح الذى صلب فى عهد بيلاطس البنطى، كاله مع الأب. لكنهم لو عرفوا سر الصليب، لما قالوا ذلك. لكنهم يمكنهم أن يعرفوه عن طريق ثماره. فنحن الذين عشنا قبلا فى الفجور، نتعلم الآن العفة. نحن الذين استخدمنا السحر، كرسنا ذواتنا للخير - الاله المتأس -، نحن الذين أحببنا المال والمقتنيات أكثر من أى شئ آخر، نقدم ما نملك عن رضى للخير العام، ونعطى كل محتاج. نحن الذين حاربنا وقتلنا بعضنا بعضا، نصلى الآن لأجل أعدائنا. أولئك الذين يضطهدوننا عن كراهية، نحاول برفق أن نهدئهم، على رجاء أن يشتركوا فى نفس البركات التى نتمتع بها"<sup>(33)</sup>.

وعن هذا قال ترتليانوس أيضا "ان الاسم المكروه (مسيحى) يطلق على الشخصية التى أصلحت"<sup>(34)</sup>.. ويستطرد قائلا، "لقد ابغض الوثنيون المسيحية، أكثر مما أحبوا الصلاح!.. انك لن تجد مسيحيا فى السجون الا بسبب اسمه. واذا وجد لأى سبب آخر

(31) اثيناغوراس: الدفاع.

(32) Origen: Contra Celsum, 1:19, Justin : Apol. 1:4, 2:2.

(33) Justin: Apol. 1:13.

(34) Tert: Apol., ch.3

فهو لم يعد مسيحياً" (35).

ويمضى ترتليانوس وهو يشرح كيف ان المسيحيين أبرياء من أية جريمة: فضيلتهم مؤسسة على ديانتهم، مفهومهم للفضيلة تعلموه من معلمهم الالهى، شريعتهم الأخلاقية تعلموها من شفاه الهيئة. ويتوقعون أن يحاكموا أمام قاض الهى. وعقيدتهم فى العذاب الابدى أنه جزاء الخطية، وأن الحياة الأبدية مجازاة عن الصلاح. وفضلا عن ذلك، فالوصايا التى وضعت عليهم متسعة جدا، حتى أنها تشمل كلمات الشفاه وأفكار القلب...

يقول أرنوبيوس "لماذا تستحق كتبنا أن تلقى فى النار، وأن تمنع اجتماعاتنا بعنف؟ فى هذه الاجتماعات ترفع صلوات للاله الواحد، ونسال السلام والغفران لكل من له سلطان: للجنود، للملوك، للاصدقاء.. للاعداء، لاجل الاحباء والذين اعتقوا من رباطات الجسد. كل ما يقال فى هذه الاجتماعات يتجه الى جعل الناس خيرين، لطفاء، متواضعين، فضلاء، أطهار، أسخياء فى معاملاتهم المادية" (36).

ومن الإنصاف القول أن هذا الاتهام لم يصدقه الوثنيون النابهون فى أى وقت من الاوقات. فقد استطاع يوستينوس الشهيد فى حوارهِ مع تريفو اليهودى أن ينتزع منه اعترافا بعدم صحة أمثال هذه الاتهامات (37). ولم يصدقها كل من تراجان ومرقس أوريليوس، كما يتضح ذلك من منشوراتهما التى أصدرها بعد الاستقصاء (38). لكن عامة الشعب اعتقدوا فى صحتها دون شك، بناء على الشائعات الكثيرة. ومن المحتمل جدا أن اعتقادهم هذا تقوى بواسطة السلطات كأشياء تخدم أغراضهم. لكن الحكام الرومان عرفوا حقا، وتصرفوا وفقا لمعلوماتهم.

فقد عرفوا مثلا أن هناك شيئا أكثر رعبا للمرأة المسيحية من الموت نفسه. هو الدعارة (39). ففى الاضطهاد الذى أثاره ديوكلتيانوس، كانوا يحكمون على العذارى بأن يودعن بيوت الدعارة، وذلك لأن المضطهدين عرفوا أن وصمة العار للطهارة والعفة المسيحية لهى أكثر رعبا لهن من أية عقوبة أو ميتة..

(ب) الاتهام الدينى:

قيل عن المسيحيين أنهم أما كفرة وبلا اله على الاطلاق، وأما أنهم يعبدون أشياء شاذة. وهنا أيضاً نجد أن تخيل الوثنيين كان هو دليلهم الاساسى.

(35) Tert.: Apol., ch. 44.

(36) Arnobius: Adversus Gentes, 4. 36.

(37) Justin: Dialogue, ch. 10.

(38) يوسابيوس 3: 33، 5: 1.

(39) Tert.: Apol., Ch., 50.

## تهمة الالحاد والكفر:

راجت شائعة مؤداها أن المسيحيين عبدوا رأس حمار وبناء على ما ذكره ترتليانوس، فقد كان المؤرخ الوثني تاسيتوس - الذي كان ينظر الى المسيحية باحتقار - هو مصدر هذه الشائعة (\*). فقد قال إن اليهود فى خروجهم من مصر، انقذوا من الهلاك عطشا بواسطة حمير وحشية، وأنهم - تعبيرا عن شكرهم - قدسوا رأس ذلك الحيوان ليكون إلههم. وكنتيجة للصلة بين اليهودية والمسيحية، فقد افترض الوثنيون أن المسيحيين عبدوا رأس حمار أيضا!! وآخرون قالوا بل أنهم يعبدون الشمس، وربما كان مرجع ذلك الى سببين: فيوم الاحد **Sunday**، كان يوم عبادة المسيحيين الاساسى، كما أنهم كانوا يتجهون نحو الشرق فى صلواتهم<sup>(40)</sup>.

آخرون ظنوا أنهم يعبدون الصليب<sup>(40)</sup> ومن المحتمل أن يكون ذلك راجعاً الى أن المسيحيين كانوا يرسمون علامة الصليب على ذواتهم<sup>(41)</sup>.

وقد خلط الامبراطور، هدریان بينهم وبين عبدة الاله المصرى سيرابيس، لكن بالنسبة لهذا الإمبراطور، فقد كان يعتقد أن جميع الديانات الغريبة عن المعبودات الرومانية القديمة سواء.

ويقول يوستينوس الشهيد فى دفاعه عن هذا الاتهام "حقا أننا ملاحدة (فى نظر الوثنيين)!.. فإما أن نقر بذلك، وإما أن نعترف بالهتكم التى ليست سوى شياطين. إننا نشترك فى هذا الإلحاد المجيد مع سقراط الذى راح ضحية مثلنا بسبب الحق السامى المأخوذ من الكلمة التى نشرها فى اليونان. أما بالنسبة لنا، فقد قبلنا الحق من الكلمة نفسه (المسيح) الذى ليس صورة منظورة. ولذا فنحن معتبرون ملاحدة.. نحن كذلك بالنسبة لأهتكم. لكننا لسنا كذلك بالنسبة لاله الحق، أب البر والحكمة والفضائل جميعا. الكلى القداسة نحن عبده، ونكرمه بالكلام والعمل. ونرغب فى أن نعلن جهاراً كل الحق الذى أقتبناه".

وفى دفع هذا الاتهام قال اثيناغوراس "ان المسيحيين يعبدون الها يختلف فى صفاته عن آلهة الوثنيين. فهو روح سرمدى (أزلى أبدى) بسيط، متميز عن المادة. وهو الخالق الواجب الوجود المسيطر على الكون. فهو اذن واحد وليس غيره اله. والمسيحيون مؤمنون بالله وليسوا ملحدين، وانما هم يعفون عن ضحاياكم الدموية. لأن الههم لا يطلب غير ضحية القلب، والطهر، وحسن السلوك<sup>(42)</sup>.

(\* ) Tert., Apol. Ch. 16.

(40) Tert.: Apol., ch. 16.

(41) Tert.: De Corona, 3.

(42) اثيناغوراس: كتاب الدفاع.

وأحيانا كان المدافعون المسيحيون - فى ردودهم على هذه الاتهامات - يجيبون بسخرية. فيقول ترتليانوس "أيها الوثنيون، انكم ظرفاء حينما تعترضون على ما نعبد! فحتى لو صحّ كل ما تقولونه عنا، لكنا - على الرغم من ذلك - أفضل منكم - لماذا تعترضون على عبادتنا رأس حمار؟ إن لديكم آلهة برؤوس كلاب، وأسود، وقرون الوعل، والكباش، وأحقاء الماعز، وأرجل الحيات، وأجنحة ناتئة من الظهر أو القدم! تقولون إننا نقدر الحمير، لكن يجب أن تعترفوا انكم تعبدون جميع أنواع الماشية! تقولون إننا نعبد الشمس، وكثيرون منكم يعبدون الأجرام السماوية والسحب. تقولون إننا نعبد الصليب، وأنتم بلا شك تعبدون أعلامكم الحربية" (\*).

ويحتمل أن تكون تهمة الكفر أكثر رواجاً بين عامة الناس. فتهمة كفر المسيحيين كان لها ما يؤيدها فى نظر الوثنيين. فقد كانت أماكن عبادة المسيحيين خالية من متطلبات العبادة التى اعتادوا رؤيتها فى معابد كافة الديانات.. وعلى هذا الأساس قال الفيلسوف الوثنى كلسوس: "فطالما أن المسيحيين ليس لهم معبد، فبالتالى ليس لهم آلهة" (43).

كان المدافعون جدّ حريصين على تبرئة المسيحيين من تهمة الإلحاد و الكفر، وإظهار أنهم وإن كانوا لا يعبدون آلهة الوثنيين، لكنهم يخدمون الله الحيّ ويعبدونه. فيتساءل أرنوبيوس "هل فى عبادة الله، كالكاثن الأعلى، رب كل الموجودات والمجد فوق الجميع، والالتجاء إليه بخضوع فى الصلاة أثناء ضيقائنا، والتمسك به بكل مشاعرنا، ومحبتة، والتطلع إليه بايمان، هل فى هذا خطأ؟... هل مثل هذه الديانة لعينة وغير مقدسة، مملوءة الحاداً و دنساً و تدنس بخرافاتها الجديدة الشعائر القديمة؟! (\*)".

### كوارث الطبيعة:

كان من الممكن أن يمر كل شئ فى هدوء نسبي، طالما كانت أحوال الوثنيين متيسرة. لكن المخاوف الخرافية كانت تفرعهم فى زمن الكوارث (44) - كما حدث فى القرن الثانى - وتبعاً لذلك كانت الصيحات تتردد بأن الآلهة غاضبة لان معابدها أهملت، بسبب المسيحيين، فكانوا هم الضحايا (45).

فى تلك الفترات كانت تقام الاحتفالات الدينية العامة، وتقرب التقدمات لاجل هطول الامطار، ويسيروا فى المواكب الدينية، حفاة الاقدام.. وبطبيعة الحال كان المسيحيون

(\*Tert. Apol. Ch. 16.

(43) Origen: Contra Celsum, 7:62.

(\* Arnobius 1:25.

(44) Arnobius: Adv. Gentes, 1:24.

(45) Tert: Apol, cc 25, 40 :Minucius Felix: Octavius, ch.7.

لا يشاركون في أمثال هذه الاحتفالات. ويروى لنا ترتليانوس، أن الوثنيين اعتقدوا أن المسيحيين هم السبب في جميع الكوارث العامة كالزلازل والفيضانات والقحط والمجاعات والابوة... وفاخر القيصر مكسيمينوس بأن الاضطهاد الذي أثاره على المسيحيين، أعاد الى العالم الخير والسلام والصحة التي افتقدها زمانا طويلا(46).

كان هذا الاعتقاد سائدا ومسيطرًا على العقلية الرومانية، فاهتم كثير من المدافعين بدحض هذه الفرية واطهار أنه لا أساس لها. وقد أشار أرنوبيوس الى أن هذه الكوارث العامة كانت تحدث قبل ظهور المسيحيين بزمان طويل (47) يقول "انها ثلاثمائة سنة منذ أن بدأنا نحن المسيحيين في الظهور. كم من حروب توالى، وكم من محاصيل خابت؟ ثم ألم يحدث في أيامنا سلام غامر على الارض؟ على عكس ذلك، لقد كانت هناك دائما أوفر محاصيل القمح، ومواسم الرخاء. وأحرزت الدولة انتصارات لا حصر لها. واتسعت رقعة الامبراطورية، وامتدت حدودها. انه من الانصاف أن تنسبوا نجاحكم لنا، كما تحاولوا ذلك في كوارثكم. فضلا عن ذلك، فهل من المناسب أن تنسبوا الغضب والحقد للآلهة الخالدة؟ أتوجد هذه الانفعالات في عقول الآلهة؟

ثم، اذا كنا نحن الذين نكدرها، فهل تحتاج الآلهة الى محاماتكم العنيفة عنها، لتنتقموا للآلهات الموجهة اليها؟ كان في امكانها أن تبيننا وتمحونا عن وجه الأرض، بالحرارة والبرد، بالعواصف والأمراض. لماذا لا تظهر قوتها ان كانت غاضبة حقًا؟ والى جانب ذلك، اذا كنا نحن وحدنا نكدرها، فلم لا يحل الانتقام بنا وحدنا؟"(48).

ودفاعا عن هذا الافتراء يبين ترتليانوس أن كوارث كثيرة حلت بالعالم قبل مجئ المسيح. لقد تلاشت جزر بفعل الزلازل، وأبيد العالم بطوفان، وأحرقت مدن سدوم وعمورة. وفلسيني وبومبي **Vulsinii Pompeii** بالنار، وهزم الرومان في كاناي **Cannae**، وحوصر معبد الكبيتول **Capitol**.

كل ذلك حدث قبل أن يذكر اسم مسيحي بزمان طويل... وكحقيقة فان المسيحيين يخفون من الكوارث التي تأتي على الارض. فبينما يتوسل الوثنيون في زمان الكوارث والفرع طالبين من الآلهة النجاة بتقريب القرابين، والمواكب الدينية، فان المسيحيين بالصوم والصلاة والامتناع عن الشر و المتع العادية، يفتحون السماء بلجاجاتهم. انهم يمسون قلب الله، وهو يتأرف لكن جوبتر **Jupiter** هو الذى يخطئ بالكرامة(49)!

(46) يوسابيوس 9 : 7.

(47) Arnobius: Adv, Gentes, 1: 3-5.

(48) Arnobius: Adv. Gentes. 1: 15.

(49) Tert.: Apol., 40.



## (ج) الاتهام السياسي:

وهو أهمها، وأخطرها جميعا.. فقد قيل أن المسيحيين يؤلفون جماعة سرية، ويتبعون ديانة جديدة محرمة، وهم غير أوفياء للامبراطور وغير نافعين للدولة...

## تأليف جماعة سرية:

فمن جهة الجماعات السرية، كان حماس الرومان ضدها كبيرا جدا. كانت هناك سرية تحوط المسيحيين وديانتهم. فضلا عن ذلك، فقد كانت هناك أمور كثيرة تثير الشك...

كان المسيحيون جماعة من الناس من كل الشعوب، تنمو وتنتشر كل يوم... كانوا مرتبطين برباط معين لغرض غير معروف. وكان هذا الغرض كبير الأهمية، حتى أن كل ما يعتبره الآخرون ذا أهمية، كانوا هم يهملونه.. كانوا يزدرون بكرامات العالم ومباهجه على السواء... وكانت تشيع شائعات غامضة عن مملكة يؤسسونها. وهذا وحده كان كافيا لاشعال نار الحماس فى عقل أى حاكم رومانى... ومن وقت لآخر كانت تظهر ومضات من أغراضهم، وهى ليست سوى قلب ديانة الدولة.. اذن فالمسيحيون تبعوا جماعة سرية من أخطر الجماعات..

## المسيحية ديانة جديدة محرمة:

لكن ليس هذا هو كل شئ... فالمسيحية كانت ديانة محرمة، وديانة جديدة أيضا... ولاول وهلة، قد يظن أن اضافة ديانة جديدة الى الديانات القائمة، ليس شيئا خطيرا، أو على جانب من الأهمية... لكن لم يكن الامر هكذا بالنسبة للمسيحية من حيث طبيعة رسالتها. كان التقاء الوثنية والمسيحية على صعيد واحد، أمرا مستحيلا.. كان كلاهما خصما للآخر. وقد أوضحنا هذا الامر ايضا كما فى ما سبق.

كانت المسيحية فى صميمها، ديانة تبشيرية تسعى نحو الآخرين. و كان عمل خدامها أن يذهبوا إلى الطرق العامة والسيارات ويلزموا الناس بالدخول (لوقا 14:23)... وهكذا أوقفت المسيحية نفسها موقف السخرية بسبب دعوتها لجميع الشعوب فى آسيا وأوربا وأفريقيا، من اليونان والبرابرة والساكنين فى أقصى الارض، وضمهم اليها تحت شريعة واحدة(51).

لقد تدخلت المسيحية فى عبادة الآلهة القومية، بل وأكثر من هذا، أنكرت عبادة الامبراطور، التى قصد بها الرومان، توحيد العالم برباط دينى واحد.. ومن ثم أصبحت

المسيحية، التي تدعو الى ديانة مسكونية، تشكل خطرا بالغا ومنافسا. وسرعان ما تصدت الدولة الرومانية للمسيحيين الذين عكروا صفو سلامها. فالمسيحيون لم يتركوا الآخرين وشأنهم، ولذلك لم يتركوا وشأنهم<sup>(52)</sup>.

كانت حادثة المسيحية كديانة تؤلف بندا هاما فى بنود الاتهامات الموجهة الى المسيحيين. يدعوها لوكيان **locian** فى سخرية " هذه الديانة الجديدة" ويتساءل ديوجونيتس **Diognetus** " لماذا اتى هذا النوع الجديد من الممارسات الى العالم متأخرا؟"<sup>(53)</sup> وكان التعبير المؤلف الذى يواجه به المسيحيون "معتقدكم ظهر الى الوجود حديثا"<sup>(54)</sup> وكان هدف آخر الاضطهادات العامة (ديوكليتيانوس)، أن يعيد التشريعات الدينية، والانظمة القديمة، وعبادة الاسلاف... وجاء فى منشور ديوكليتيانوس القاضى باضطهاد المسيحيين "يجب الا تبطل ديانة جديدة، الديانة القديمة"... ويقول الفيلسوف الوثنى كلسوس "كبرى الجرائم، هى أن يهدم ما وضعه اسلافنا، وما كان له الاولوية فى الدولة... انه عمل من أعمال العقوق، أن نتخلص من التشريعات الموضوعه منذ البدء فى الاماكن المختلفة"<sup>(55)</sup>.

لم يكن من الصعب الرد على الاعتراض المؤسس على حادثة المسيحية كديانة... لقد جاوب المدافعون المسيحيون عن هذا الاتهام بالقول، أن ظهور المسيحية كان يحتاج الى اعداد تاريخى، به يتدرب الجنس البشرى تقويا لاقتبال المسيح. وفى ذلك يقول هيبوليتس **Hippolytus** فى كتابه "ضد اليهود": "الروح هى عين العقل وبها نميز الامور الروحية. فاذا كان لك الروح فستفهم الامور السماوية، لان كل شئ يفهم نظيره"<sup>(56)</sup>.

وكثيرا ما قيل أن المسيحية كانت فى علم الله وحكمته منذ الأزل. وكان لها نذيرون خاصة بين اليهود الاتقياء، الذين أنبأوا عنها بغير قصد، وذلك قبل مجئ المسيح بزمان طويل. وبالرجوع الى ما سجله موسى النبى، وثبوت قدمه عن كل الكتابات الوثنية، استطاع المدافعون أن يرجعوا المسيحية، حتى الى ما قبل الطوفان، بل الى جنة عدن...

وقد أكد كل من يوستينوس الشهيد وتلميذه تاتيان، أن موسى أقدم بكثير من فلاسفة اليونان وشعرائها ومشرعيها. ويظهر أثيناغوراس أن نفس أسماء الآلهة الوثنية حديثة، وتمثيلهم من صنع الامس. ويدعو كليمنض الاسكندرى الفلاسفة اليونانيين الوثنيين لصوصا وسالبيين لانهم سرقوا بعضا من الحق الذى تكلم عنه أنبياء

(52) Watson: Defenders of the faith, ch. 4.

(53) Ad Diognetus, ch 1.

(54) Theoph.: Ad Aut., 3:4.

(55) Origen: Contra Celsum, 5:25.

(56) De Pressensé, Vol. 2, p.588.

اليهود، وشوهوه. ويوجه ترتليانوس ومينكيوس فيلكس وغيرهما الى هؤلاء الفلاسفة، تهمة سرقة تأليف غيرهم<sup>(57)</sup>.

أما أرنوبيوس، فيعالج الموضوع من وجهة نظر أخرى. فهو يشير الى التحسينات في العلم والفن والحضارة. ويتساءل هل في هذا شئ ردي لانها جديدة؟<sup>(58)</sup>. ويلاحظ أن الرومان كانوا باستمرار يغيرون عوائدهم وطرق معيشتهم.. وفيما يختص بقديم الديانة الوثنية، فإنها مسألة نسبية وفي ذلك يقول أرنوبيوس "أن معتقدنا الذي نتمسك به جديد، وسيصبح يوما ما قديما. ومعتقدكم الآن قديم، ولكنه حين ظهوره كان جديدا، و لم يسمع به. وصحة الديانة لا تقرر بناء على عمرها، بل على طبيعتها. اننا نعتزف أن ديانتنا لم يكن لها وجود منذ أربعمئة سنة، ولكن منذ ألفى سنة أيضا، لم يكن لآلهتكم وجود"<sup>(59)</sup>.

### تهمة عدم الولاء للامبراطور:

ترددت هذه الصيحة منذ وقت مبكر... لقد حرك اليهود في مدينة تسالونيكي الدهماء، وادعوا كذبا على المسيحيين أمام الحكام، بأنهم "يعملون ضد أحكام قيصر، قائلين انه يوجد ملك آخر هو يسوع"... هذا هو الادعاء الذي أزعج الحكام (أع 17: 7، 8)، وأثار ثائرة الدولة. ولكن ما أن اكتشفت الدولة، أن مملكة المسيحيين سمائية روحية، حتى كفت عن شغل نفسها بهذا الامر<sup>(60)</sup>.

لقد اعتبر المسيحيون غير مواليين للامبراطور، لانهم رفضوا أن يقدموا له احترام العبادة، وأن يقسموا بقدرته وذكائه، ويحتفلوا بالايام الاحتفالية الخاصة به... لقد رفضوا أن يجعلوا منه الها، فاعتبروا خونة.

ويدافع الشهيد يوستينوس ضد هذا الاتهام، ويشرح مبادئ الكنيسة الحكيمة وعلاقتها بالسلطات القائمة. وبعد أن اقتبس كلمات السيد المسيح بخصوص اعطاء الجزية لقيصر، قال " أننا نعبد الله وحده. لكن ليس ما يمنع أن نطيعكم بسرور، ونعتزف بكم كملوكنا وحكامنا، ونطلب لاجلكم، أن تضاف الحكمة الى السلطة الجليلة التي تتقلدونها، حتى ما تحسنوا استخدامها".

ويخبرنا المدافعون، بأن المسيحيين كانوا على اتم استعداد لتقديم كل الاكرام اللائق بالبشر للامبراطور، وأن يصلوا لاجله، ويخدمونه، ويكرمونه كما يليق برعايا أتقياء أوفياء.. وأوضحوا أنه لا وجود للمسيحيين بين المتأمرين، لان ديانتهم تمنعهم

(57) De pressensé, Vol. 2 p.588.

(58) Arnobius: Adv. Gentes, 2:66,67.

(59) Ibid.,: 71, 72,

من أن يريدوا الشر لأي أحد، سواء بالعمل أو الكلام أو الفكر، وقالوا أن المسيحيين لهم اهتمام خاص بنجاح الامبراطورية الرومانية، لأنهم يعتقدون أنه بسقوطها سيعم الاضطراب العالم<sup>(61)</sup>.

### اتهام المسيحيين بعدم نفعهم للدولة:

ويبدو أن هذا الاتهام، هو أكثر الاتهامات، الذي كان له ما يؤيده في نظر الروماني الوثني<sup>(62)</sup>... ويتضح ذلك من استعراض الآتي:

كان المسيحي في ذلك الوقت المبكر، يحيا حياة روحية تقوية خالصة بتأثير الشحنات الروحية الكبيرة، التي كان يشحن بها... مترسما خطوات السيد المسيح وأقوال رسله في الانجيل المقدس... يملأه احساس قوى أنه ليس من العالم، وأنه يجب ألا يحب العالم، ولا شئ مما فيه... لقد كان للمسيحية تأثيرات قوية على حياته الخاصة، وعلى اتجاهاته في الحياة، كان لا يشغله سوى التطلع الى رجاء المواعيد العتيدة. أما على الأرض فليس له رجاء في أى شئ... وضع أمامه حياة السيد المسيح المتجسد، وتطلع في نفس الوقت إلى مجيئه الثاني في قوة ومجد عظيمين... بل كان يتوقع دائما قرب هذا المجيء... وهكذا تعلق آماله بعالم آخر غير منظور...

من هنا كان عزوفه عن العالم بكل مباحجه، لا يرتاح اليها، ولا يشارك فيها باقى مواطنيه من الوثنيين.. هكذا نبتت هذه الفكرة، وراجت هذه الشائعة، أن المسيحيين مواطنون غير نافعين للدولة...

لكن المدافعين المسيحيين يشيرون الى هذا الاتهام، وينكرون صحته يقول ترتليانوس "كيف يحدث في العالم كله، أن تكون هذه حالة أناس يحيون فيما بينكم. يأكلون نفس الطعام، ويرتدون نفس الثياب. لهم نفس العادات، ويرزحون تحت نفس ضرورات الوجود؟... نحن متغربون معكم في العالم، غير تاركين الساحات Forum، ولا المجازر (السلخانات)، ولا محلات البيع المتنقلة، ولا المصانع، ولا الفنادق، ولا الاسواق الاسبوعية، ولا أى مكان آخر للتجارة، نحن نبيع معكم، ونتجند في جيوشكم، ونفلق الأرض معكم...."<sup>(63)</sup>.

ومن ناحية أخرى، يذكر ترتليانوس أن المسيحيين كان لهم احتفالاتهم الدينية الخاصة القيمة .. ينفقون كثيرا في الاحسان، ولا يتأخرون في سداد ما عليهم... لا يجارون العصر في التنعم والرذيلة. وهذا لا يضير الدولة في شئ، ولا يكبدها أية

(61) Tert: Apol, ch 32.

انظر أيضا (رو 13: 1، 3+1+1 بط 17: 13+1+1 تي 2: 2.. الخ).

(62) Origen: Contra Celsum, 8:55-68.

(63) Tert.: Apol., ch.42.

خسارة.

وقد قوى هذه المشاعر لدى الوثني **بين امتناع بعض المسيحيين عن العمل في بعض الاعمال والوظائف، لما كان فيها من أمور، وممارسات، وطقوس وثنية تتعب ضميرهم المسيحي وتعرضهم لخطر الموت كمسيحيين... ومن أمثلة ذلك: الاشتغال بصناعة التماثيل المعبودة، ومستلزمات الهياكل الوثنية من تقدمات وضحايا، والاشتغال بالتجارة لما يصابها عادة من مشاكل التعامل المالى والغش والخداع، ومشاكل التقاضى، وأيضا الاشتغال بالجندية - وكانت مهنة للتكسب والارتزاق - لما يصابها من طقوس وثنية ضرورية...**

على أى حال، فقد كانت هذه حالات فردية، ومع ذلك، فقد استغلها عامة الناس في ترويج شائعات ضد المسيحيين. فالعلامة أوريجينوس يقول "ليس أحد يحارب للملك أفضل منا (المسيحيين). اننا نؤلف جيشا خاصا له، جيش تقوى، بتقديم صلواتنا لله" (65).

وليس أدل على أن هذه حالات فردية، نتيجة بعض الشطط في أفكار واتجاهات وتصرفات البعض، من قول القديس كليمنضس الأسكندري مدير المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية، وأحد المدافعين المسيحيين "اشتغل بالزراعة أن كنت مزارعا. لكن فيما تفلح حقولك أعرف الله. واركب البحر يا من كرسيت ذاتك للملاحة، وأسأل المرشد السماوى. وأنت يا من ارتبطت بالخدمة العسكرية، هل تعلمت أصول الجندية؟ اصغ للقائد في كل ما يأمرك به من صواب" (66).

### نتائج دفاع المدافعين:

بالنسبة للنتائج التي حققتها هذه الدفاعات.. من جهة أثرها في إيقاف الاضطهاد أو تخفيف حدته - فأنا نجد صعوبة في الوصول إلى ذلك، نظرا لقلّة المصادر التي تعيننا على تكوين هذا الرأى. ولذا لا نستطيع أن نجزم بشئ. وان كان قد قيل أن الامبراطور انطونيوس بيوس، أوقف الاضطهاد بعد قراءة دفاع يوستينوس.. لكنه قول مشكوك فيه (67).

لكن، لكتابات الدفاع نتائج أخرى:

(1) فهي تمدنا بصورة واقعية وعجيبة، عن الحياة المسيحية، والمجتمع المسيحي في أجيال المسيحية الاولى، وتقنعنا بالعمل العظيم الذى قام به أولئك الذين

(65) Origen. Contra Celsum, 8:73.

(66) Watson: Defenders of the faith, p. 70(Clement Alex.,Cohort.; ch. 10).

(67) يوسابيوس 4: 12، 13.

وثقوا فى المسيح من كل قلوبهم.

(2) تعطينا هذه الدفاعات صورة دقيقة واضحة للعبادات الوثنية، وللجهالة التى غشيت العالم، والظلمة الجسيمة التى عمت الشعوب، قبل أن يأتى النور الحقيقى الى العالم (ربنا يسوع المسيح)... ثم هى تصور لنا النور والظلام يتصارعان وشيئا فشيئا ينتصر النور، ويزداد قوة وضياء، وتعوزنا شهادة أولئك الذين - بعيون مستنيرة - رأوا الظلمة قبل الفجر، ليخبروننا كم كان ذلك الظلام دامسا! انه أمر يدعو الى الخجل الشديد، أن يتناول الانسان بالحديث الاعمال التى كان يعملها الوثنيون - ليس سرا، بل علانية وجهرا - ليس فقط فى العابهم ومعارضهم، بل فى أعيادهم الدينية المقدسة، وفى معابد آلهتهم.

(3) لدفاعات أولئك المدافعين قيمة كبيرة - ليس فقط من جهة دفع الاتهامات التى حاول أعداء المسيحية أن يلصقوها بها، بل أيضا السرد والعرض الممتع اللذان قدموا بهما المسيحية الى الوثنيين واليهود.... فلم يتركوا شاردة ولا واردة الا فحوصها وردوا عليها فى قوة عجيبة واقناع مذهل... ومن حيث أرادوا أن يدفعوا عن المسيحية اتهامات أعدائها، قدموها فى صورة رائعة، خلابة، وكطعام شهى، يصلح لجميع الفئات والثقافات والعقليات والطبقات.

(4) ودفاعات المدافعين المسيحيين تحمل الينا فى طياتها رسالة تعزية وتشجيع نحن الذين انتهت الينا أواخر الدهور.. فان كانت الامبراطورية الرومانية، بكل قوتها، وبكافة الاساليب التى استخدمتها، فشلت فى اباده الكنيسة المسيحية وهى بعد فى مهدها وطفولتها، فانه ليست هناك قوة على الارض، تستطيع أن تبيدها وهى فى طور اكمالها ورجولتها... وهكذا تثبت لنا عمليا صدق كلمات رب الكنيسة "ان أبواب الجحيم لن تقوى عليها"...